جوانب من النشاط الحرفي للمرأة المغربية من خلال نصوص بعض الرحالة الأوروبيين: مقاربة سوسيو- تاريخية"

د. مجيد هلال*

ملخص

من النادر جدًّا أن تتطرق الكتابات التاريخية لموضوع الحرف والصنائع بصيغة المؤنث؛ مع العلم أن المرأة لها حضور مركزي ضمن الحرف التقليدية، بل هناك من الحرف ما كان حكرًا على النساء، من هنا تأتي أهمية هذه الدراسة، لتسليط الضوء على بعض الحرف التي أتقنتها المرأة المغربية، وجعلت من العنصر النسوي فاعلًا ثقافيًّا بمعناه الأنثربولوجي، و كذا فاعلًا اقتصاديًّا، يسهم في الإنتاج الحرفي ببلاد المغرب.

إطلالة تاريخية ستعتمد فيها الدراسة على بعض المصادر الرحلية لرحالة أوروبيين زاروا المغرب ما بين القرنين 16 و20 الميلاديين، نظرًا لأهمية هذه الكتابات أمام صمت الكتابات التاريخية المحلية التقليدية حول موضوع الحرف عمومًا وفئة الحرفيات على وجه الخصوص.

ولمقاربة الموضوع، ستعتمد الدراسة منهجًا تاريخيًّا، يرتكز على مقاربة سوسيولوجية في بعدها التاريخي، سعيًا نحو إبراز مكانة المرأة المغربية ضمن النشاط الحرفي إلى جانب الرجل، ومدى مساهمتها في تنشيط هذا القطاع، إضافة إلى دورها في حفظ واستمرار هذه الحرف بوصفها جزءًا لا يتجزأ من التراث والهوية المغربية العريقة.

* د. مجيد هلال – دكتوراة في التاريخ الحديث والمعاصر- باحث في التراث والثقافة المغربية.
Majido02@hotmail.com

كلمات مفتاحية: الحرف، المرأة المغربية، تاريخ، المصادر الرحلية.

Aspects of the artisanal activity of Moroccan women through the texts of some European travelers: a sociohistorical approach.

Abstract

It is very rare for historical writings to address the subject of crafts in the feminine form, knowing that women have a central presence within traditional crafts, hence the importance of this study, to highlight some of the crafts mastered by moroccan women, and made the feminist element a cultural actor in its anthropological sense, and an economic actor, contributing to craft production in the country of Morocco.

A historical view in which the study will rely on some traveling resources of European travelers who visited Morocco between the 16th and 20th centuries AD, given the importance of these writings in the face of the silence of traditional local historical writings on the subject of crafts in general and the category of crafts women in particular.

To approach the subject, the study will adopt a historical approach, based on a sociological approach in its historical dimension, in an effort to highlight the position of moroccan women within the craft activity alongside men, and the extent of their contribution to the revitalization of this sector, in addition to their role in preserving and continuing these crafts as an integral part of the ancient moroccan heritage and identity.

Key words: Crafts, moroccan women, history, traveling resources

إن المرأة المغربية كانت وستظل عنصرًا أساسيًّا في بناء حضارة وتراث المغرب، من خلال حضورها القوي والفاعل في مختلف جوانب الحياة، ولعل من أبرزها ما يرتبط بالحرف والصنائع التقليدية المغربية الأصيلة، وهي حرف امتهنتها وأتقنتها هذه المرأة، وتفنَّنَت أناملها في صنع وإنتاج أحلى وأجود ما استعمله الإنسان المغربي في حياته اليومية، بل إن من الحرف ما كانت حكرًا على النساء دون الرجال، خاصة ما يرتبط بالمنسوجات، وقد احتفظت المصادر الرحلية بما يثبت الإسهام الفعّال للمرأة المغربية في تحريك هذا المجال وكذا تنشيط السلسلة الاقتصادية، وذلك من خلال توفير المنتوج الحرفي، الذي يُسوَّقُ في الأسواق والمحلات التجارية المغربية.

من هنا، فإن المرأة المغربية، كانت تلك الحرفية والصانعة الماهرة، رغم ما قد يعترضها من صعوبات وعراقيل، فإنها استطاعت أن تبني لنفسها صورة إيجابية من خلال دورها وموقعها المتميز ضمن تاريخ الحرف والحرفيين في تاريخ المغرب. **إذن فما تجليات هذا النشاط الحرفي عند المرأة المغربية؟**

وفي هذا، فقد رصدت أعين الرحالة الأوروبيين، بعض مظاهر وتجليات هذه الصورة والمكانة التي تبوأتها المرأة المغربية في مجال الحرف بمختلف فروعها وتخصصاتها، ولكن تبقى **حرفة النسيج** وما يرتبط بها من منسوجات، من لباس، وأفرشة وأغطية، وغيرها من المنتجات النسيجية، هي الحرفة التي أخذت نصيب الأسد ضمن تلك الحرف التي مارستها المرأة المغربية، وهي من الحرف التي تعود إلى فترات تاريخية قديمة، فقد جاء في رحلة "**مارمول كربخال**" ، (M.Karvajal)خلال القرن 16 م، وهو يتحدث عن سكان إحدى مدن المغرب وردت عنده تحت اسم "فستالة" أو "أفزا" الواقعة على حد تعبيره في جهة الشمال من الأطلس الكبير، فإن بعض

سكانها يتاجرون بالصوف "الذي تصنع منه أقمصة ثمينة وزرابي، لأن النساء يتقنّ غَزْلَه"[1]، وفي موقع آخر يقول عن قبيلة "بني يازغة إن: "صوفها في غاية الرقة والنعومة، بحيث تصنع منه النساء معاطف وأكسية رفيعة كأنها حرير"[2]، ليستمر "مارمول" في ذكر ما يدل على مدى إقبال المرأة المغربية، على حرفة النسيج ومدى إتقانها لهذه الحرفة، ففي منطقة "أسَّا" جنوب المغرب، "تنكب النساء هناك على غزْل الصوف والأوبار"[3]، وفي منطقة "فكيك" بشرق المغرب "تصنع نساؤهم نسيجًا من الصوف الناعم، يشبه الأغطية التي توضع على الأَسِرَّة، ولكنها دقيقة وجيّدة الصنع، حتى يخالها المرء مصنوعة من الحرير"[4]، وإن مهارة وحضور المرأة في هذه الحرفة، كان مَحَطَّ انتباه وإعجاب كل رحالة ساقته الأقدار إلى زيارة القرى والأرياف المغربية، حيث هناك برزت بشكل كبير ومُلفت صناعة النسيج عند المرأة المغربية، نظرًا لتوفر المادة الأولية المستخدمة في النسيج وهي الصوف والوبر، خاصة ممن توفرت لهم الماشية من أغنام وماعز وإبل، أو عن طريق شرائه من الباعة المتجولين، حيث يذكر "أوكيست موليراس" (Auguste Moulièras) في إحدى الإشارات القليلة، أن "الصوف الذي يتم جلبه من طرف الباعة المتجولين، يستخدم من طرف النساء لصنع الجلابيب"[5].

---

[1] – مارمول كربخال، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي وآخرون، ج2، مكتبة المعارف، الرباط، الطبعة الأولى، 1984، ص:118.

[2] – مارمول كربخال، سابق، ص:282.

[3] – نفسه، ج3، ص:142.

[4] – نفسه، ص:162.

[5] – أوكيست موليراس، **المغرب المجهول، اكتشاف الريف**، ترجمة من الفرنسية عز الدين الخطابي، منشورات تفراز، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2007، ص:62.

وبناء على هذا، فإن المرأة المغربية، كانت أساس تنشيط هذا النوع من الحرف، ففي منطقة "سوس" مثلا، يذكر "**خواكين غاتيل**" (Jouaquim Gattel) على أنه "تكاد تكون كل الحياك والسّلاهيم والأثواب المصنوعة من الصوف للاستعمال المحلي من صنع النساء"[6].

ومن النساء من كان شغلها الشاغل، هو نسج خيوط الصوف، وصناعة بعض المنتوجات المنسوجة، فقد أوردت ذلك الرحالة الفرنسية "**رينولد دو لا شاريير**" (Renauld de Lacharrière) إذ "تقضي المرأة سحابة يومها، بعد الفراغ من أشغال البيت في صناعة الصوف والحرير، ونسج الزرابي، وخياطة البلاغي"[7]، وإن انشغال المرأة المغربية، بغزل الصوف ونسج خيوطها، أو غيرها من المواد كالحرير، كان من أجل تلبية ما تحتاجه أسرتها وبيتها، من ألبسة وأفرشة وغيرها، فكانت المرأة المغربية، تسهم إلى جانب زوجها، في توفير بعض اللوازم والمنتجات المنسوجة، وذلك بدافع العوز والحاجة، فهي "تحيك طوال النهار الحايك والجلابيب التي سيجدها زوجها الرحالة عند عودته والتي سيلبسها"[8]، أو بدافع استغلال أوقات الفراغ، ورغبة المرأة المغربية في الإبداع الفني والحرفي، فهذه مثلًا الرحالة الفرنسية "**رينولد**" وهي تزور بيوت أحد الأعيان من الموظفين بمدينة "أزمور" غرب المغرب، تعبر عن مدى إعجابها بما كانت تقوم به زوجة مُضيفِها، قائلة عنها: "وهي تحدثني لم تتوقف عن شغل أصابعها بخيوط صوف تصنع منها بعض المناديل توضع فوق موائد الأكل بجوار الورد"[9]، وفي هذا؛ ما يدل على أن المرأة المغربية لم تكن دائمًا تضطر إلى امتهان حرفة النسيج بدافع الفقر والحاجة إلى المدخول، وإنما قد يكون رغبة في ممارسة هذه الحرفة بوصفها

---

[6] – خواكين غاتيل، **رحلات في ربوع المغرب**، ترجمة من الإسبانية محمد المساري، مطبعة ليتوغراف للنشر، طنجة، المغرب، الطبعة الأولى 2016، ص:237.

[7] – رينولد دولا شاريير، **عين على الحريم**، ترجمة من الفرنسية محمد ناجي بن عمر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، المغرب، 2019، ص:137.

[8] – أوكيست موليراس، **المغرب المجهول، اكتشاف جبالة**، ترجمة من الفرنسية عز الدين الخطابي، منشورات تفراز، دار النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 2011، ص:397.

[9] –رينولد دولا شاريير، سابق، ص:24.

هواية ومجالًا تفرغ فيه المرأة المغربية طاقتها الإبداعية والفنية، وتزين بيتها، وتضفي لمساتها الجمالية على أرجائه، وهذا يظهر فيما تحيك وتنسج من منتجات مختلفة ومُتقنَةُ الصُّنْع.

وقد تتولى المرأة المغربية، نسج وصناعة أغطية الخيمة، وبعض لوازمها، فقد ذكر "**شارل دوفوكو**" (Charles de Foucauld) وهو يتحدث عن نواحي مدينة "زمور"، بأن "داخل كل خيمة نساء ينسجن لفليج وتَرَحَّلْت، أو يَفْتِلْنَ الحصر من الدُّوم التي تطرز فيما بعد بظفائر من صوف ذات ألوان زاهية"[10]، ولهذا كان عمل المرأة، من حياكة ونسيج، بدافع الحاجة المنزلية، وتوفير بعض أغراض ولوازم الأسرة والبيت من هذه المنتوجات.

وقد يكون انشغال المرأة المغربية بالنسيج، هو لغرض الربح المادي بشكل مباشر أو غير مباشر، والحصول على مدخول يومي، عن طريق تسويق ما تنتجه هؤلاء النساء، إما بمفردها، أو بمساعدة الرجل، "كصنع الجلابيب التي تباع في أسواق القبيلة"[11]، أو عبر تصدير ما تصنعه المرأة عبر الأسواق المغربية، وستكون لنا وقفة مفصلة في هذا الشأن، عند حديثنا عن مساهمة المرأة المغربية في تنشيط القطاع التجاري، وتسجيل حضورها الفعال إلى جانب الرجل في هذه الأنشطة، ما يهمنا، فقط إعطاء لمحة، عن مدى إقبال المرأة المغربية على حرفة النسيج، كصناعة "تستجيب بالدرجة الأولى لحاجة أفراد الأسرة الكبيرة"[12].

ومنه؛ تتجلى قيمة ومركزية المرأة في هذا الجانب، وفاعليتها في سلسلة الإنتاج الذي كانت تقوم عليها عمليات إنتاج المنسوجات بمختلف أصنافها، ما يلغي تلك الصورة الهامشية التي حاكَها

---

[10] –شارل دوكوفو، **التعرف على المغرب 1883–1884**، ج1، ترجمة من الفرنسية المختار بلعربي، دار الثقافة للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ص: 61.

[11] –أوكيست موليراس، الجزء الأول، سابق، ص:62.

[12] – أحمد التوفيق، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر: إينولتان 1850–1912**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، 2011، ص:242.

الخطاب الذكوري حول المرأة المغربية، وتُحاكُ بدلها صورة بخيوط الذهب، لتعكس مركزية وريادة المرأة المغربية في هذا المجال.

إضافة إلى ريادة المرأة المغربية في الصناعات المرتبطة بالحرف النسيجية، فقد كانت حاضرة أيضًا بسواعدها ومجهودها، وكذا بطاقتها الخلاّقة والمبدعة في حرف أخرى، كانت من أبرز الحرف التي اعتمد عليها المغاربة في سدِّ ما يحتاجون إليه في حياتهم اليومية، وإن في المصادر الرحلية، ما يوثق لهذه الأدوار التي تتجلى معها صورة المرأة الحِرفية في عدة حرَفٍ وصنائع، كانت أغلبها يدوية، وتعتمد أدوات بسيطة، ومن هذه الفروع ما يرتبط **بصناعة الخَزَف**، فعادة ما ينظر إلى هذه الصناعة على أنها حكر على الرجال ومن اختصاصهم، وهو كذلك، لكن، هذا لم يمنع المرأة المغربية من أن تكون لها يدٌ في هذا النوع من الصناعات التقليدية، وهو ما نستنتجه من خلال ما أورده الرحالة "**أوكيست موليواس**"، عند حديثه عن قبائل "جبالة" بأقصى شمال المغرب إذ يقول: "وبجانب الطريق المؤدية إلى قرية المشاعة، ترتفع هضبة تستخلص منها النساء، بواسطة الفؤوس، الصلصال الضروري لصناعة المقالي والقدور وباقي الأدوات المنزلية"[13]. وتذكر أيضًا، الرحالة الفرنسية "**رينولد**" عن نساء مراكش ونواحيها أنهن "يصنعن من الطين الأطباق الكبيرة التي تستعمل لعجن الخبز وبيعها في الأسواق"[14]، ما يؤكد مساهمة المرأة المغربية، إلى جانب الرجل في هذه الصناعات الخزفية.

وبرزت المرأة، أيضًا، في فروع حرفية أخرى، كما هي الحال مع **المصنوعات النباتية**، منها "صنع القفف والقبعات وحصائر الدوم"[15]، فمثلًا في قبيلة "مطالسة" بقبائل الريف بالشمال الشرقي للبلاد كانت الساكنة تعتمد على المصنوعات المعتمدة على نبات الحلفاء، فقد كان "الرجل يتقدم في السهل، ممسكا حاصِدَتَهُ بيده ومتبوعًا بزوجته، وعند كل نصف دائرة ترسمها هذه الآلة المخيفة

---

[13] –أوكيست موليراس، الجزء الثاني، سابق، ص:65.

[14] –رينولد دولا شاريير، سابق، ص:138.

[15] – أوكيست موليراس، الجزء الثاني، سابق، ص:380.

على الأرض، تسقط الأعشاب الكثيفة التي تجمعها زوجته الشجاعة على شكل حزم صغيرة مربوطة بعناية، وعند الرجوع إلى الخيمة، يشرع الجميع في فتل الحبال وصنع النعال والقفف والحصائر والغرابيل"[16]. كما شاركت المرأة المغربية إلى جانب الرجل في صنع "البرادع التي توضع على ظهور الحمير والبغال والسلال المدورة (الطبوقة) إلخ... ويصنعها عمال من الجنسين"[17]، كما أن "بعضهن تصنع الخيوط المستعملة في صناعة الحقائب الجلدية[18]، إضافة إلى هذا فقد كانت هذه المرأة "تصنع الصابون، بمزج الجير والرماد والزيت، كما تصنع القراميد التي تغطي سقوف بعض المنازل"[19]، كما هي الحال عند المرأة في قبيلة صنهاجة بشمال المغرب، بل إن المرأة على صغر سنها، وهي ما زالت فتاة بِكرًا، كانت تنخرط في أجواء الحرف والصنائع، وهو ما آثار انتباه بعض الرحالة، منهم الرحالة "**ميشو بلير**" وهو بمدينة "وزان" شمال المغرب، معبرًا عن ذلك، حين قال: "واسترعى انتباهي معلم شيخ تساعده ابنته في صناعة مواقد الفحم "مجامر" من النحاس الأبيض وأباريق "غلايات قهوة"[20].

ومما سبق، وارتكازا على تلك المعطيات التي تناثرت بين صفحات الكتابات الرحلية الأوروبية، فإن حضور المرأة المغربية، في ميدان الحرف، هو حضور راسخ وذو فاعلية، لا يمكن بأي حال إنكاره، فقد استطاعت من خلاله هذه المرأة أن تقف جنبًا إلى جنب مع الرجل في شتى أنواع هذه الحرف، وما ترتب عنها من مصنوعات، وكان حضورها وفاعليتها أقوى، خاصة ما يرتبط ببعض الحرف، مما يعطينا انطباعًا جد إيجابي حول تاريخ المرأة في هذا المجال، ويرسخ صورة إيجابية ومُشْرِقة حول حضور ومساهمات المرأة في هذا الجانب، وكذا دورها في تنشيط الحرف وتحريك

---

[16] –نفسه، الجزء الأول، ص:129.

[17] –نفسه، الجزء الثاني، ص:682

[18] –رينولد دولا شاريير، سابق، ص:138

[19] –أوكيست موليراس، الجزء الثاني، سابق، ص:367.

[20] –ميشو بلير، **رحلتي الأولى إلى وزان**، ضمن كتاب: **مرايا العتمة، مدخل إلى السوسيولوجيا الاستعمارية بالمغرب1864-1925**، من تأليف محمد ناجي بن عمر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن زهر أكادير، الطبعة الأولى2020، ص:75.

السلسلة الاقتصادية محليًّا ووطنيًّا، لتكون المرأة المغربية ممن صنعوا تاريخ وتراث الحرف و الصنائع ببلاد المغرب.

مصادر ومراجع

❖ مصادر

- أوكيست موليراس، **المغرب المجهول، اكتشاف الريف**، ترجمة من الفرنسية عز الدين الخطابي، منشورات تفراز، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2007.
- أوكيست موليراس، **المغرب المجهول، اكتشاف جبالة**، ترجمة من الفرنسية عز الدين الخطابي، منشورات تفراز، دار النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 2011.
- خواكين غاتيل، **رحلات في ربوع المغرب**، ترجمة من الإسبانية محمد المساري، مطبعة ليتوغراف للنشر، طنجة، المغرب، الطبعة الأولى 2016.
- رينولد دولا شاريير، **عين على الحريم**، ترجمة من الفرنسية محمد ناجي بن عمر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، المغرب، 2019.
- شارل دوكوفو، **التعرف على المغرب 1883-1884**، ج1، ترجمة من الفرنسية المختار بلعربي، دار الثقافة للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى.
- مارمول كربخال، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي وآخرون، ج2، مكتبة المعارف، الرباط، الطبعة الأولى، 1984.
- ميشو بلير، **رحلتي الأولى إلى وزان**، ضمن كتاب: **مرايا العتمة، مدخل إلى السوسيولوجيا الاستعمارية بالمغرب1864-1925**، من تأليف محمد ناجي بن عمر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن زهر أكادير، الطبعة الأولى2020.

❖ مراجع

- أحمد التوفيق، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر: إينولتان 1850-1912**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، 2011.